وجدنا أن الأساليب والنماذج الشعرية أو الأدبية أو الفنية التى تقدم الينا مهلهلة سقيمة لا تتفق والمثل العليا التى نتشبث بها فوق غرامنا بالترجمة التحليلية التى تساعدنا على فهم الشاعر أو الأديب أو الفنان لانها بمثابة التحقيقات عند القاضى النزيه !

ولابد أن تسألنى يا صاحبى لماذا أغفلت هذه الناحية النقدية عند حافظ فاجيبك بان شعر حافظ فيه من السذاجة والبساطة والصدق والجمال ما يجعل الناقد يقف معه موقف الصداقة والحدب لا موقف العداء .

فماذا تطلب من حافظ ونقده وقد أجاد الرجل الرثاء ونبغ فيه وشارك الشعب فى آلامه وآماله وأضحت رسالته رسالة المصلح الاجتماعى الذى تحبه الانسانية المعذبة والعدالة والقانون ؟

اذاً ليس لنا أن نغلو فى نقده كما نغلو فى نقد شوقى أو العقاد أو الزهاوى أو أبى شادى لأن لكل منهم عوالمه التى حلق فى سماواتها ومثله العليا التى نشدها . ولابد لكل واحد منهم أن يدفع الثمن غالياً لأن المثل العليا لا تعرف الهوادة ولا اللين ؟

أحمد محمد عيسى

الشاعر البائس

حياته — الكتب التى قرأها — الشعراء الذين تأثر بهم — نظرات فى شعره
مظاهر البؤس فيه — اسباب بؤسه — حسنات هذا البؤس وسيآته

منذ نصف عام تقريباً أخرج الدكتور أبوشادى محرر « أبولو » كتابا خاصاً بذكرى المغفور له أحمد شوقى بك حشد فيه شتيتاً من الدراسات المستفيضة ، والقصائد الرائعة لكبار الكتاب والشعراء فى مصر وفى غير مصر

وسيظل هذا السفر القيم الذى أتيح لى أن أساهم فيه بنوع من هذه الدراسات خير مرجع لمن يريد الكتابة عن هذا الشاعر الخالد فى المستقبل .

واليوم يسجل له التاريخ اليد الثانية على الأدب حيث يخرج لنا عدداً خاصا بحافظ : ذلك الشاعر المغبون الذى عاش بائساً ومات بائساً، ولا أود أن يفوتنى الاشتراك فى هذا العدد التذكارى الذى اعتقد أنه لن يقل عن سابقه جمالا وجلالا .

ولقد مضى على أكثر من نصف شهر وأنا أتصفح ديوان حافظ بدأب وشغف وأمعن فى دراسته لأتلمس ناحية غالية أو عاطفة مسيطرة على شعره أعالج فى بحثى الذى انتويته دراستها وتحليلها فكنت فى كل صفحة من صفحات هذا الديوان وفى كل سطر من سطوره أرى البؤس ماثلاً سافراً وأحسّ بحنق الشاعر وتبرمه بالحياة وأهلها واضحاً ملموساً فى جميع ما قرأت .

حياته

عاش حافظ ستين عاماً أو تزيد قليلا قضى الجانب الأعظم منها مكتئباً حزيناً، وكانت حياته بوجه عام سلسلة من الآلام والمتاعب ليس فيها ما يبعث الأمل أو يساعد على السلوان . وهذه الحياة الشاقة المضنية تختلف فى أطوارها اختلافاً نقسمها من أجله الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : نشأ حافظ نشأة لم يفارقه البؤس فيها لحظة واحدة وتعرف إلى الحزن والكآبة فى مهده فاستنكر وجوده وتمنى فى هذه السن المبكره فناءه وفى ذلك يقول :

وودت لو طرحوا بى يوم جئتهمُ فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب

وقد كانت له نفس طُلَعة تميل للمجد وتكلف بالمعالى . لم ير فى تعليمه البسيط مايغذى هذه النفس النهمة فطفق يغذيها بالقراءة والاطلاع وهو بعد فتى لم يطو من طريق الحياة أكثر من عشرين عاماً . وما إن وصل إلى هذه السن حتى كان قد قرأ من أمهات الكتب أكثر من خمسين كتاباً كما يقول عارفوه والمتصلون به عن كثب وكان يقرأ الكتب بنهم وشغف ويحفظ من كل منها أحسنه وسنتحدث إليك فى موضع آخر عن نوع هذه الكتب — وقد بدأ منذ هذه السن ينظم مقطوعات قصيرة أكثرها فى المدح ومداعبة الأصدقاء .

المرحلة الثانية : لم يكد حافظ يبلغ العشرين من عمره حتى التحق بمدرسة الحربية

كضابط بمرتب ضئيل لا يكاد يكفيه ، وكان يقضى أوقات فراغه من عمله على وجازتها بين الكتب . وشاءت المقادير بعد ذلك أن يُنقل حافظ الى السودان فطوحت به يد النوى مأسوفاً على فراقه من أصدقائه وخلانه .

وكانت الحكومة إذ ذاك تعد السودان منفى للمغضوب عليهم من الجنود والضباط ومكث حافظ فى السودان بين نارين نار القيظ ونار الغيظ . وكان الحاكمون به يومئذ خليطاً من المصريين والانجليز ، وكان لاولئك السلطة الفعلية فى جميع الأمور ، وكان حافظ ينظر إلى هؤلاء والانجليز المعاشرين له بعين البغض والشنآن ، ويزداد حسرة وألماً كلما رأى نفسه وإخوانه عبيداً لأولئك القوم الطارئين . وجدير برجل كبير النفس رقيق الاحساس كحافظ أن يتأثر بما حوله وأن تظهر هذه الآثار فى نظمه ونثره ، وكتابه « سطيح » أصدق مرآة تمثل لك حياته الخاصة فى السودان ومعاملة الانجليز له ولمعاشريه من المصريين فى هذا العهد الذى يصفه لنا فى قوله :

إذا نطقتُ فقاع السجن متكئى وإن سكتُّ فإن النفس لم تطب

وسنتحدث عن هذا الكتاب بنوع من الاسهاب عند دراستنا لنثره .

أمّا آلامه فى السودان وما كان يعانيه فى بيدائه من بؤس وعذاب فقد تكفلت ببيان معظمه تلك الرسالة التاريخية التى بعث بها من منفاه الى الاستاذ الإمام يرجوه فيها أن يسعى لدى ولاة الأمور فى نقله من السودان ، وكانت هذه الرسالة أول حجر فى بناء صلته بالاستاذ الإمام .

قرأها فأعجب بها وأجاب عنها وسعى فى نقله ومن ذلك الحين بدأ حدبه عليه وتقديره له . وهذه الرسالة كما تدل على ان حافظ لم ين لحظة عن الاطلاع والحفظ والكتابة تصور لنا مقدار ما كان يعانيه من آلام ويداخله من هموم فى هذه البلاد وهى طويلة نتخيَّر منها ما يأتى :

لقد حللتُ فى السودان حلول الكليم فى التابوت ، والمغاضب فى جوف الحوت ، بين الضيق والشدة ، والوحشة والوحدة . لا ! بل حلول الوزير فى تنور العذاب ، والكافر فى موقف الحساب ، بين نارين نار القيظ ونار الغيظ

فناديت باسم الشيخ والقيظُ جمرة يذيب دماغَ الضبِّ والعقل ذاهبُ

واستمع اليه وهو يقول من قصيدة بعث بها إلى احد اصدقائه بمصر يتشوق اليها ويصف آلامه وأشجانه :

وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادتى وجه التراب
وحتى صيرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعد ما دبغت إهابى
وحتى قلم الأملاق ظفرى وحتى حطّم المقدار نابى
متى أنا بالغ يا مصر أرضاً أشم بتربها ريح الملاب ؟!

وسترى بعد أن هذه المرحلة كان لها أثر أى أثر فى انتاجه ولا سيما جانب البؤس والألم منه .

المرحلة الثالثة : وهذه مرحلة النضوج والأثمار بحق فلم يكد يستقيل من عمله ويفلت من قيد وظيفته حتى تجلى نبوغه وبدأ ينتفع بمواهبه ويتفرغ للعمل الذى خلق له . وإذا كان قبل ذلك يختلس أوقات المطالعة ويسترق سويعات النظم والتدوين فانه هنا قد تفرغ للأدب وابتدأ يقرأ الكتب الكبرى وينشد القصائد الغراء فى شتى المناسبات ، وقل أن نجد مسألة هامة أو حادثاً جللاً فى هذا العهد لم يساهم فيه بشعره . وثلاثة أرباع ديوانه أثر من آثار هذا العهد ، على أن هذه المرحلة التى تكون النصف من عمره ليست كلها مرحلة فيض وانتاج بل تنقسم بالنسبة إلى ذلك ثلاثة أقسام :

ا — فترة قوية مخصبة فى جميع النواحى ، وهى تكون الشطر الأعظم من هذه المرحلة

ب — فترة صمت وركود وإجداب ، وهذه هى مدة وجوده فى دار الكتب المصرية .

ج — فترة انطلاق ونهوض وهذه المدة قصيرة المدى لا تكاد تجاوز العام غادر فى أوله دار الكتب وغادر فى آخره عالم الفناء : وشعره فى هذا العام سياسى محض يعاتب فيه الانجليز ويذكرهم بعهودهم التى نكثوها .

الكتب التى قرأها

يقول كثير من الأدباء الذين كتبوا عن حافظ غبّ موته أنه كان معجبا بكتاب الاغانى لأبى الفرج الأصفهانى اعجاباً جعله يقرأه أكثر من مرة ، بل يذهب بعضهم

إلى أبعد من ذلك فيقول إنه لم يقرأ كتابا فى الأدب سواه واعتقد أن هذا الكتاب على الرغم من شهرته وسعته فى بابه لا يُكوِّن وحدُه شاعراً كحافظ لأنه شتيت من أخبار معنعنة وأشعار غير مضبوطة ولا مشروحة وتراجم الكثير من الشعراء والكتاب متفرقة لا تجمعها جامعة . وهو فوق ذلك مملوء بالاخطاء المطبعية التى تستنفد الوقت فى ضبطها واصلاحها — ونحن مع اعترافنا بغلاء الكتب فى هذا العهد وقلة تداولها بين الأدباء لا نكاد نسلم بأن اطلاع حافظ كان قاصراً على كتاب واحد أياً كان نوعه .

وأنت إذا قرأت ديوانه بروية وامعان وقرأت إلى جانبه كتابيه « البؤساء » « وسطيح » ووقفت على ما كان يستعمله فى نظمه ونثره من الألفاظ والمعانى التى لم يتعلمها فى مدرسة ولَم يتلقّها عن أستاذ — اذا عرفت ذلك وسمعت ما يقوله المعمرون من رجال دار الكتب من أنه كان يقضى كل فراغه بين جدرانها عرفت عن يقين أنه لا بد قد طالع كثيراً من كتب الأدب وقرأ كثيراً من دواوين الشعراء القدامى كامرىء القيس وعنترة والنابغة والمحدثين كالمتنبى والبحترى وابى نواس وأبى تمام . وحفظ لكل من هؤلاء أحسن ما قرأ .

والمتأمل فى السطور الآتية من رسالته السابقة إلى الأستاذ الامام :

« وجمعت فى كتابى هذا بين ثقة الزبيدى بالصمصامة ، والحارث بالنَّعامة ، فلم أقل ما قاله الهزلى لصاحبه ، حين نسى وعده وحمد يده . يا دار عاتكة التى أتغزل بل أناديه نداء الاخيذة فى عمورية شجاع الدولة العباسية »

وقوله فى قصيدة « غادة اليابان » :

وتقحمت الردى فى غارة أسدل النقع عليها هيدبا (١)

جال عزرائيل فى أنحائها تحت ذاك النقع يمشى الهيدبا (٢)

أجل . من يقف على هذا وأمثاله لايسعه إلا ان يحكم بأن حافظاً كان واسع الالمام بدقائق اللغة ثرياً فى الألفاظ والمعانى محيطاً بكثير من اخبار العرب ومجالسهم حافظاً لشىء كثير من حكمهم وامثالهم . وهل يتيسر لشاعر لم يقرأ قصة اصحاب الكهف ولم يدرس تاريخ ابى نواس ويقف على مثل رأيه فى الخمر حين سئل لم لا يترك الخمر؟

(١) الهيدب : السحاب (٢) الهيدبا : نوع من مشى الخيل

وانت تعلم ما تفعل بشاربها من المهانة والسخرية ! — فقال : ومن لى بعرفان ذلك وأنا أسكر قبل الصحاب ولا افيق إلا بعدهم — وهل يستطيع من لم يعلم شيئاً من ذلك ان يقول فى شعره :

فواصلنا كؤوس الراح حتى بدت للعين أنوار الصريم
واعملنا بها رأى ابن هانى فألحقنا بأصحاب الرقيم

وهل نرجى ممن لم يقرأ شيئاً عن المانوية ومذهبهم وآراءهم فى منع النسل والعمل على تعجيل الفناء ان يقول :

لعل مانىَ لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب

وسأتقدم اليك بأبيات من شعره تستطيع أن تتعرف بها مقدار الكتب التى قرأها ونوع هذه الكتب إن كنت بالادب واسفاره خبيراً .

ويقول حافظ فى مدح الاستاذ الإمام :

طلعت لها باليمن من خير مطلع وكنت لها فى الفوز قدح بن مقبل

ويقول فى وصف كساء رثّ :

نسبوه لطيلسان ابن حرب نسبة لم تكن بذات افتراء

ويقول فى الانجليز وسوء معاملتهم :

لقد كانت الامثال تضرب بيننا بجور سدوم وهو من أظلم البشرْ
فلما بدت للكون آيات ظلمهم إذا بسدوم فى حكومته عمرْ

واذا كان الكلام من الكلام وكان لابد للناظم أو الناثر من ذخيرة كلامية يستنجدها البديهة ويستندبها اليراع ، كانت أبيات الشاعر وفقرات الناثر عنوان تلك الذخيرة .... واذا عرفت أن ابن مقبل الذى فى البيت الاول مقامر جاهلى فاز قدحه ٧٠ مرّة متوالية فضرب به المثل فى الفوز — وأنّ طيلسان ابن حرب الذى جاءَ فى البيت الثانى جلباب قديم بالٍ ، مدح ابن حرب أحد الشعراء فخلعه عليه فنظم فيه هذا الشاعر أبياتاً كثيرة صيرته مثلاً لكل ثوب من نوعه ومن هذه الأبيات :

يا ابنَ حرب كسوتنى طيلسانا ملّ من صحبة الزمان وصدّا
طال ترداده على الرقع حتى لو بعثناه وحده لتهدّى

وأن « سَدُوم » التى وردت فى البيتين الأخيرين اسم قاض كان يضرب به المثل فى القسوة والظلم وكان حاكماً على قرية من قرى لوط الخمس تعرف بهذا الاسم ايضاً وقد غضب الله على اهلها فدمرها عليهم .

اذا عرفت هذا أو أشباهه مما يستحيل ان يحتويه كتاب أو كتابان أيقنت بأن حافظاً لم يسمع بكتاب فى احوال العرب وأخبارهم ، ولم يقع بصره على مؤلف أدبى أيا كان نوعه إلا طالعه وألمّ بما فيه :

ولقد كان للتاريخ وأطواره من عنايته ما لا يقل عن عنايته بالأدب ونواحيه والتاريخ والأدب اخوان لا يُغنى احدهما عن الآخر إلا بمقدار ما تغنى العين عن الأذن او الأذن عن اللسان عند فاقد احداها ... وإخالك لا تشكّ فى ذلك إذا سمعته يقول فى فتنة الآستانة :

يا أسيراً فى سنت هيلين رحّبْ بأسيرٍ فى سالونيك جديدِ

وقوله فى احتفال اقامته الجامعة المصرية :

هنالك الغيد جادت بالذى بخلت به دلالاً فقامت بالذى وجبا
جزّت غدائر شعر سرّحت سفناً واستنقذت وطناً واسترجعت نشبا
رأت حلاها على الاوطان فابتهجت ولم تحسرْ على الحلْى الذى ذهبا
وزادها ذاك حسناً وهى عاطلة تزهى على من مشى للحرب أو ركبا

وقوله موضع ثالث مخاطباً « روزفلت » ومُعرّضاً بالانجليز :

ليت شعرى أكنت تدعو اليهم يوم كانوا على تخوم الثغور
يوم كانوا قذًى بعين نيويو رك وداءً مستحكماً فى الصدور
يوم نادى « واشنجتون » فلبا ه من الغيل كل ليث هصور

والممعن فى شعر حافظ يرى أنه رحمه الله لم يكن يقصر اطلاعه على الأدب العربى فحسب بل تعداه الى الأدب الأوروبى ، فقرأ « ما كبث » لشاعر انجلترا وليم شكسبير وأعجب بها ولخص أروع مواقفها فى قصيدته التى يقول فى مطلعها :

كأنى أرى فى الليل نصلاً مجرّداً يطير بكلتا صفحتيه شرارُ

وإن وصفه لفكتور هوجو الكاتب الفرنسى الذائع الصيت ، ورثاءه لتولستوي الفيلسوف ليدلان على أنه قد درس مذهب كل منهما وتعاليمه ووقف على كثير من حسناته أو ميزاته التى هى عماد الوصف والرثاء . وكان كثير الاعجاب بالأدب الفرنسى على الخصوص، وما كتابه البؤساء بجزءيه ،وما تلك الحكم الشعرية التى ترجمها لروسو ونظمها إلا ثمرة من ثمرات هذا الاعجاب .

وإذا علمت أن حافظاً لم يتعلم تعليماً دينياً ولم يتصل فى صباه بالازهر ولا بأحد فروعه ورأيت كثرة اقتباسه من القرآن واستشهاده بقصصه واستعماله لتراكيبه أيقنت أن المصحف الشريف كان فى مقدمة الكتب التى يقدسها ويدأب على مطالعتها بشوق وشغف . واذا لم يكن ذلك كذلك فقل لى بربك كيف تسنّى له أن يقول فى وصف الشمس مشيراً الى قوله تعالى فى سورة الانعام محكاية عن ابراهيم : « فلما أفلت قال: إنى لا أحب الآفلين » .

نظر (ابراهامُ) فيها نظرة فأرى الشك وما ضلّ اليقينْ
قال : ذا ربى ، فلما أفلتْ قال : إنى لا أحب الآفلينْ

أو يقول فى وصف الخمر مشيراً الى قوله تعالى فى سورة يوسف حكاية عن فتى كان معه فى السجن: « إنى أرانى أعصر خمراً » :

مذ رآها فتى العزيز مناماً وهو فى السجن بين هم ويأسِ
أعقبته الخلاصَ من بعد ضيق وحبته السعودَ من بعد نحسِ

ويقول فى شكوى الزمان مشيراً الى قوله تعالى فى سورة الصافات « وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) وقوله فى سورة يوسف (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ) :

وكم أزرت بنا الايامُ حتّى فدت بالكبش اسحقَ الذبيحا
وباعت يوسفاً بيعَ الموالى وألقت فى يد القومِ المسيحا

ولا أرى كيف فات حافظاً أن الذبيح هو اسماعيل لا اسحاق، وأن المسيح لم يقع فى يد القوم كما زعموا « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ »

الشعراء الذين تأثر بهم

كان حافظ كما كان أبو تمام كثير المحفوظ من شعر العرب ،ولقد أثر ذلك المحفوظ فى شعره فجاءَ صورة صادقة لما قرأ وما حفظ . وإنه لمن العبث الواضح والغبن الفاحش أن نقول إنه قد تأثر بشاعر فرد حتى تجلّت فى شعره أخيلة ذلك الشاعر وتشبيهاته وحده وملكته طريقته فى التعبير عما يريد .

وقد يخيل إليك إذا سمعت قوله :

جنيتُ عليكِ يا نفسى وقبلى عليكِ جنى أبى فدعى عتابى !

أنه قد تأثر بالمعرّى حيث يقول :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيتُ على أحدْ

وقد ينمو فى نفسك هذا الظن إذا قرأتَ له قوله فى موضع آخر :

وإلا فإنى قافُ رؤبة لم أزل بقيد النوى حتى تغول الغوائلُ

وعرفت أن المعرى قد سبقه إلى ذلك فقال :

ما لى غدوتُ كقاف رؤبة قيدت فى الدهر لم يقدر له اجراؤها ؟

فهل هو كذلك ؟ ولمَ لا تقول فى قوله :

ليتَ شعرى هل لنا بعد النوى من سبيلٍ للقى أم لاتَ حينْ !

إنه كان متأثراً ببشار بن برد حيث يقول :

يا ليت شعرى وقد شط المزارُ بهم هل تجمع الدار أم لا نلتقى أبدا ؟

ولم لا يكون حين يقول فى الرثاء :

رحم الله منه لفظاً شهياً كان أحلى من ردِّ كيدِ الأعادى

متأثراً أو محاكياً للخوارزمى حين يقول فى الغزل :

وكيف ونظرة منها اختلاساً ألذّ من الشماتة بالعدوِّ ؟

بل قد يترجح لديك وأنت تقرأ قوله فى تأبين المغفور له مصطفى كامل :

عليكَ ، وإلا ما لذا الحزن شاملاً ؟ وفيكَ ، وإلا ما لذا الشعب باكياً ؟

وقوله فى موضع آخر :

وكنت إذا عمدت لأخذ ثارٍ أسلت البرَّ بالأسدِ الضوارى

أنه قد تأثر فى الأول بقول المعتمد بن عباد :

علىَّ ، وإلا ما بكاء الغمائم ؟ وفىَّ ، وإلا مانواح الحمائم ؟

كما تأثر فى الثانى بقول كثير فى الغزل :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىِّ الاباطحُ

الحق أنه قد قرأ لهؤلاء الشعراء جميعاً وحفظ لكل منهم وتأثر به بمقدار ما قرأ أو حفظ من شعره ، والذين يقولون إنه قد تأثر بالمتنبى أكثر من تأثره بأى شاعر آخر إنما ينظرون فى دراستهم الى ناحية خاصة لعلها قدرته وبراعته فى وصف الحروب وميادينها وما يلحق بها ، وهذا النوع من الوصف قد انفرد المتنبى بالإجادة فيه .

ونحن وإن كنا لانستطيع أن نتناسى أن حافظاً وشوقى ومن قبلهما البارودى قد أكبوا على دراسة هذا الشاعر الفذ واستفادوا جميعاً من شعره واتخذوه استاذاً لهم خصوصاً فى هذه الناحية ـ ناحية الحروب وما يدور فيها من هجوم ودفاع أو هزيمة وانتصار ـ فانه لايصح كذلك أن ننسى ان حافظاً كان ضابطاً يعيش بين الأسلحة والكتائب ويشهد بنفسه المعارك ويسمع بأذنيه قذائف المدافع وصليل السيوف .

وإذا كان شوقى وهو لم يتقلد صارماً ولم يرَ حرباً استطاع بمحض التقليد والاعتماد على الأذن تارة وعلى المخيلة تارة أخرى أن يأتى فى وصف الحروب بهذه المطولات الرائعة ، ولم يمنعه بُعده عن الوغى وعدم خبرته بالقتال ومعاناته أو معاينته له من أن يقول فى حرب الدولة العلية مع اليونان :

كأنّ الوغى نارٌ ، كأن جنودَنا مجوسٌ إذا ما يمموا النار قربوا

كأن الوغى نار ، كأن الردى قرًى كأن وراء النار (حاتمُ) يدأب !

كما يقول فى موضع آخر واصفاً هزيمة اليونان :

على القلل الاجبال حيرى جموعهم شواخصُ ، ماإنْ تهتدى أين تذهبُ

إذا صعدتْ فالسيفُ أبيضُ خاطفٌ وإن نزلتْ فالنارُ حمراء تلهبُ!

فليس بعجيب أن ينبغ حافظ فى هذه الناحية وهو ابن الحرب الذى اصطلى بنارها وقضى زهرة شبابه بين السيف والمدفع وشاهد بعينيه وسمع بأذنيه وقائعها.

وقد عاصر حافظ صديقه البارودي فى أخريات أيامه وأعجب به وبشعره حتى طلب اليه ان يصدر ديوانه بصورة أو حكمة تعرفه الى القراء فتمثل بهذين البيتين من شعره :

انا ابنُ قولى وحسبي فى الفخار به وإن غدوتُ كريمَ العمِّ والخالِ

فانظر لشعرى تجدْ نفسى مصوَّرةً فيه ، فمن مِقولى قد خُطَّ تمثالى

وبينا تراه يترفع عن تقليد غيره من شعراء عصره تراه كثير الميل الى محاكاة البارودى والاستفادة من شعره والاعتراف له بالفضل والنبوغ .

وإنك لترى هذه الصلة الغالية صلة التلميذ بأستاذه أو الولد بأبيه ماثلة فيما نظمه فى مدحه أو رثائه من قصائد . واستمع اليه حين يمدحه فيقول من قصيدة طويلة :

ولو أننى نافرتُ دهرى وأهلَه بفخرك ما أبقيت فى الناس سيدا

ولو لم يمدح البارودى بغير هذا البيت الخالد لكفاه فخراً وشرفاً .

نظرات فى شعره

لا أستطيع فى هذه الصفحات القليلة أن أستعرض مواضع الجمال فى شعر حافظ أو أنقد ما فيه من هنات ، ولا أدعى أنى درسته دراسة تمكننى من ذلك ، ولكنى سأمرّ مسرعاً على بعض المواضع التى تسترعى نظر كل مطلع على شعر .

وسأقصد فى هذه النظرة الخاطفة الى بيان ميزاته التى لابد لكل متصدر لدراسته من أن يقدرها فيقف عندها ويتبينها . وسترى أولاً أنه رحمه الله كان يتخذ من مدائح العظماء ورثاء موتاهم لبنات لبناء عظمته وشهرته ، شأن الشاعر الناشىء الذى يريد أن يتعرف إلى الناس ويشعرهم بوجوده وهو بعد فتى بائس قليل الألسنة والآذان . ولهذا جاء قرابة النصف من شعره مديحاً ورثاء . وأكثر الذين اختصهم بذلك بعد الأسرة العلوية هو الاستاذ الامام ثم الاسرة الأباظية

بمديرية الشرقية .

ولمديح حافظ ورثائه صفة خاصة هى مزجه دائماً بالشكوى وإبداعه ما يعانيه من ضنك وضيق . وقلّ أن يترك مدحةً أو مرثية من غير أن يصدرها أو يطويها على حاجته . واستمع اليه حين يصدر مدحةً للخديوى فى عيد رأس السنة بهذين البيتين :

عسى ذلك العامُ الجديدُ يسرنى ببشرى ، وهل للبائسين بشيرُ ؟
وينظر لى ربُّ الأريكة نظرةً بها ينجلى ليلُ الأسى ويُنيرُ

وإذا أفلتَ من حاجته الوسط والبداية ذيلها بها فى النهاية ، وهل ترى دليلا على ذلك أوضح من أن تراه يختتم مدحةً رفعها الى الاستاذ الامام بهذ البيت :

يا مَنْ تيممتْ الفتيا بطلعتهِ أدركْ فتاكَ فقد ضاقتْ به الحالُ

ويذيل مدحة أخرى بهذين البيتين :

وقد أضحيتُ من كدحى وسعيى على الأرزاقِ كالثوب الرديمِ
فلا تخلق ـ فُديتَ ـ أديمَ وجهى ولا تقطعْ مواصلةَ الحميمِ

وثانياً تجد لشعر حافظ ما يسمى فى علم البديع ببراعة الاستهلال، إذْ له مطالع رائعة كل مطلع كأنه عنوان سارع الى الآذان ليستأنس لما وراءه أو اجمال لغرض يفصله ما يليه من ابيات ، وإن شئت شاهداً على ذلك فاستمع إلى قوله فى مستهل السنة الهجرية :

أطلَّ على الأكوان والخلق تنظر هلال رآه المسلمون فكبروا

أو تأمل قصيدته فى « البورصة » :

ببابك النحسُ والسعودْ وموقفُ اليأسِ والرجاءْ

وكذلك كان فى مراثيه يستفتح القصيدة ببيت لو اقتصر عليه ولم يتبعه بغيره لاستشفَّ القارىء والسامع من خلاله وحده غرضه والمعرض الذى قيل فيه ـ ألست تجد ما يؤيد ذلك فى استهلاله مرثية المرحوم امين الرافعى بهذا البيت :

أمّا (أمين) فقد ذقنا لمصرعه وخطبهِ من صنوفِ الحزنِ ألوانا

وتصديره مرثية المغفور له (رياض باشا) بذلك البيت :

(رياضُ) أفِقْ من غمرة الموت واستمعْ حديثَ الورى عن طيب ما كنتَ تصنعُ

ولهذين المطلعين روعة وتأثير في النفس لا تحسه في مطالع غيره ممن اشركوا في تأبين هذين الفقيدين .

وبينا ترى شوقي يريد ان يهيء الخديوي فيمهد لذلك بما ينيف على العشرين بيتاً في الغزل أو الوصف — نرى شاعرنا يبتديء قصيدته في الموضوع عينه بهذا البيت الرائع الذي يجمع الى جمال اللفظ وحسن اختياره شرف المعنى واتّساقه :

مُنّي نلتَها يا لابسَ المجدِ معلما أديناً ودُنيا ؟ زادك الله أنعما !

وثالثاً حسن التخلص ، ولا تحسبن حافظاً كان في كل شعره كذلك يتماشى ، ويعمد الى غرضه من اول الأمر دون أن يمهد له بوصف أو نسيب ، فان له مطولات ليست بالقليلة يتطرق فيها الى مقصده بأبيات كثيرة في وصف الخمر حيناً وفي شكوى الزمن أحياناً ، بيد أنه كان صناعاً ماهراً في التخلص إلى غرضه والانتقال إلى مقصده .

وها هو ذا بعد أن يذكر أكثر من ٢٠ بيتاً في مناجاة نفسه والشكوى من تهاون المصريين وسوء حالهم يتخلص الى مدح السلطان حسين (وكان إذ ذاك أميراً) بهذه الأبيات :

وانا قد ونينا وانقسمنا فلا سعيٌ هناك ولا وئام
فلا عجبٌ إذا ملكت علينا مذاهبنا وأكثرنا نيام
(حسين! حسين!) أنت لها ! فنبه رجالا عن طلاب الحق ناموا
وكن بأبيك لابن أخيك عوناً فأنت بكفه نعم الحسام

وله أبيات يتخلص بها من غرض الى غرض وينتقل من معنى الى غيره كأنها حلقات أفرغت على مثال يلائم كلا الغرضين السابق منهما واللاحق — كتب مرة الى صديق له يمدحه ويشتاق إلى لقائه فبدأ كعادته بالحنين الى مصر وأهلها ، ولم أكد أصل في قراءة تلك القصيدة الى هذين البيتين :

لامصر تنصفني ولا أنا عن محبته أريمْ
واذا تحوّل بائسٌ عن حبها فأنا المقيمْ

حتى أشفقتُ عليه من العجز عن الوصول الى ما كان يريد ، وإذا به بعد ذلك يتخلص الى مدح صاحبه بهذا البيت الذي لا يشعرك بمغايرة ولا انتقال :

فيها صحبتكَ واصطفيـ تكَ أيها الخلُّ الحميمْ

وإنْ تعجبْ فعجبٌ أن تقرأ له فى الغزل ودل الحبيب وجفائه ، ومرثيه هو وإخوانه من جراء هجره وصده ، زهاء الثلاثين بيتاً حتى يخيل اليك ان القصيدة قد قيلت فى هذا الغرض ، وأن الشاعر قد تعثر فى استرساله حتى استعصى عليه الانتقال ، ثم تراه بعد ذلك يخرج من كل ما رأيت ويتصل بغرضه الذى قصده على الصورة الآتية:

وأتت تعود مريضها لا بل أتت مني تشيع راحلاً لو تعلم
أقسمت بالعباس انّى صادق فمُريهمو بجلاله أن يقسموا
ملك عدوتُ على الزمان بحوله وغدوتُ فى آلائه أتنعم

وسترى أنه يغالط نفسه ويخالف الحق فى بيته الأخير .

ورابعاً غلبة الروح الوطنى وحب مصر ونيلها على شعره ، وأنا أعتقد أن وطنيات شوقى والبارودى على قلتها وطنيات جوفاء : تسمع رنينها عن بعد فتهتز وتطرب ، فاذا دنوت منها وجدتها فارغة لاتبل صدى ولا تشفى أواماً — ومهما بالغتَ فى وصفها وإطرائها فانك لن تستطيع أن تقول فيها أكثر من أنها ساحرة رقيقة الأسلوب موجزة إلى حد يجعلها شبيهة بالحكم والأمثال .

أما وطنية حافظ فانها فضلا عن تغلغلها فى معظم قصائده وطنية حقيقية ، تدل من أول نظرة على أن صاحبها يحس باحساس الشعب ويترجم لنا عبراته وخفقات فؤاده . ولهذا تراه قد استعرض فى شعره مواضع ضعفه ومواطن آلامه ووقف من أمته موقف الطبيب يتعرف الداء ويصف له ناجع الدواء .

وكيف ينتظر من البارودى رئيس الوزارة أو من شوقى شاعر الخديوى وصَفِيِّه وهما يتقلبان فى رفاهة العيش ونعيمه ولم يعرفا للبؤس معنى ولا طرق لهما الاعسار يوماً باباً ، كيف ينتظر من مثلهما أن يؤلمه إملاق معاصريه وبؤسهم فيبكى . وهل إذا بكيا تساوت دموعهما ودموع أخيهما الذى اندسَّ فى غمار الشعب وحمل من مصائبه بمقدار ؟ وهيهات :

أن يعرف الشوقَ إلا مَنْ يكابدُه ولا الصبابةَ إلا مَنْ يعانيها

وكان حافظ طوراً يستنهض المصرى ويستحفزه ويذكره بمجد آبائه وتراث أجداده فيقول :

لعمرك ما أرِقتُ لغير مصرٍ وما لى دونَها أملٌ يُرام
ذكرتُ جلالها أيامَ كانت يصول بها الفراعنة العظام
وأيامَ الرجالُ بهـا رجالٌ وأيامَ الزمان لها غلام
فأقلق مضجعى ما بات فيها وبانت مصرُ فيه ، فهل أُلام؟
أرى شعباً بمدرجة العوادى تمخّخَ عظمَه داءٌ عقام
فساءَ مقامُه فى أرض مصر وطاب لغيره فيه المقام

وطوراً يذكره بعيوبه ويشرح له وسائل رقى الشعوب وعوامل نهوض الأمم فيقول :

عارٌ على ابن النيل سباقُ الورى مهما تقلب دهرُه أن يُسبقا
أوَكلما قالوا تجمع شملهُم لعب الشقاقُ بجمعنا فتفرقا؟!
فتعلموا ، فالعلم مفتاحُ العلى لم يُبق باباً للسعادة مغلقا
ثم استمدُّوا منه كل قواكم إن القوىَّ بكل أرض يتقى
وابنوا حوالى حوضكم من يقظةٍ سوراً ، وخطوا من حذارٍ خندقا
وزِنوا الكلامَ وسدّدوه فانهم خبؤوا لكم فى كل حرفٍ مزلَقا

وبينما كان شوقى شاعر عباس وابن نعمته يتلمس مواضع رضاه فيرويها بقريضه ويحاذر أن يُرى شاذاً عن رغبات سيده يوماً ما ، كان حافظ ابن الشعب وشاعره حراً فى آرائه مطلقاً فى تفكيره ، لا يتقيد برأى أمير ولا وزير — ولهذا جاء شعره فى السياسة أعمق أثراً وأشد جرأة وصراحة — وإن شئت فقل جاء لساناً صادقاً عن مصر وما تحسُّه من عنت المحتلِّ وعدوانه . ولعل أول صوت ارتفع فى الفخر بمصر والمطالبة بحقوقها والتعرض لمثالب المحتلين وظلمهم ونقد أعمالهم كان صوت حافظ . وهل استطاع غيره أن يقول للمحكمين فى (دنشواى) منددّاً بجورهم وقسوتهم :

أحسنوا القتلَ إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبتمو أم جمادَا
ليت شعرى أتلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عادَا ؟!
كيف يَحْلو من القوىِّ التشفى من ضعيف ألقى اليهِ القيادَا

وأن يعرض فيها برجل كان ولا يزال من أشهر رجال المحاماة فى مصر فيقول :

لا جرى النيلُ فى نواحيكِ يا مصـــــرُ ولا جادكِ الحيا حيث جادا
أنت أنبت ناعقاً قام بالأمـــــس فأدمى القلوب والأكبادا
ايهِ يا مدرهَ القضاء ويا من ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا

وهل سمعت أن شاعراً استطاع أن يودع (كرومر) بمثل هذه اللطمات الدامية:

الى من نشتكى عنتَ الليالى الى العباس أم عبد الحميد ؟
ودون حماها قامت رجالٌ تروِّعنا باصناف الوعيد
رمانا صاحب التقرير ظلماً بكفران العوارف والجحود
وأقسم لايجيب لنا نداءً ولو جئنا بقرآن مجيد
وانبت فى النفوس لكم جفاءً تعهده بمنهلّ الصدود
رمى دار المعارف بالرزايا وجاء بكل جبار عنيد

وهل اجترأ مجترىء على أن يبسط له عيوب عهده فى مصر كما بسطها حافظ فى قصيدة أخرى حيث قال :

نناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبق للتعليم يا لوردُ معهدا
وانك أخصبت البلاد تعمداً وأجدبت فى مصر العقول تعمدا
ووافيت والقطران فى ظل راية فما زلت بالسودان حتى تمردا
فطاح كما طاحت مصوّعُ بعده وضاعت مساعينا بأطماعكم سُدى
حجبتَ ضياء الصحف عن ظلماته ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)
وأودعت تقرير الوداع مغامزاً رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بها دين النبى وإننا لنغضب ان أغضبت فى القبر (احمدا)

وخامساً كثرة التضمين والاقتباس ، ولا يتيسر ذلك الا لثريّ فى الادب واسع الاطلاع ، ومن أمثلة ذلك فى شعره قوله فى رثاء البارودى :

وأربو على ذلك الفخور بقوله : (اذا قلت قولا أصبح الدهر مُنشِدا)

وقوله فى المدح (يريد البدع فى الابيات السابقة) :

وباتوا عليها جاثمين كأنهم (على صنم فى الجاهلية عُكَّفُ)

ومن ذلك أيضاً تضمينه أبياتاً كاملة لغيره من الشعراء كما فى قوله مضمناً بيت أبى تمّام :

ألّفتُ بين ابن السحاب وبينها فرأيتُ صحةَ ما حكاه الطائى :

(صعبتْ وراض المزجُ مىء خلقها فتعلمت من حسن خُلق الماء)

وقوله فى عبد الدستور العثمانى مضمناً بيت بشار :

روت قول بشار فثارت وأقسمت وقامت الى عبد الحميد تعاتبه

(اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه)

وأنت ترى أنه لم يضمن قصيدته بيتاً الا وقرنه باسم صاحبه ، وهذه دقة وأمانة تحملها له .

وفى التضمين هنا من البراعة والجمال ما لا يقل عن مثلهما فى قول البارودى مضمناً شطر أبى نواس :

ولو كنتُ فى عهد النواسىّ لم يقل: أجارةَ بيتينا أبوك غيورُ

ولا عن قول صفى الدين من قبله مضمناً شطر المتنبى :

أشرقن فى حُلل كأنّ أديمها شفق تدرعه الشموس جلابيا

وغربن فى كلل فقلت لصاحبى (بأبى الشموس الجانحات غواربا)

وقد قدمنا لك فى غير هذا الموضع انه كان دائباً على تفهم القرآن وحفظه ، وقد أثر هذا المفهوم والمحفوظ فى شعره كظهور اللآلىء فى التاج أو الماسة بين لوامع الاصداف إذْ زاده روعة وجمالا . وما إخال القراء فى حاجة الى بيان منزلة القرآن واسلوبه من الأدب العربى — وفى شعره من ذلك مُثلٌ شتى أسلفنا لك جانباً منها وها نحن اولاء نعود فنقدم لك جانباً آخر .

قال رحمه الله يمدح سليمان باشا أباظه مشيراً الى قوله تعالى فى سورة النمل (قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليحطمنكم سليمان وجنوده) :

سليمان ذكَّرتَ الزمان واهله بعزِّ سليمانَ واقبال دنياه
اذا سرت يوماً حذر النملُ بعضه مخافة جيش من مواليكَ يغشاه

وقال فى مدح الاستاذ الامام مشيراً الى قصة موسى والخضر عليهما السلام (سورة الكهف) :

وكنتَ كما كان ابن عمران ناشئاً وكان كمن فى سورة الكهف يذكر

وقال من رسالة بعث بها الى رفعت بك وكيل مصلحة السجون سابقاً مشيراً الى قوله تعالى حكاية عن يوسف (اذكرنى عند ربك) :

ولو كُنْتَ فى عهد ابن عمران لم يقل لصاحبه اذكرنى ولا تنسَ . . . .

بل لقد كان يضمن أبياته الآية أو بعضها من غير تغيير كقوله :

« قتل الانسان ما أكفره » طاول الخلاقَ فى الكون وساما

وقوله فى وصف الشمس مضمناً قوله تعالى حكاية عن ابراهيم (قال هذا ربى فلما أفلت قال لا أُحب الآفلين — سورة الانعام) :

قال : ذا ربى فلما أَفلت قال : إنى لا أُحب الآفلينْ !

وسادساً الالماع الى الحوادث التاريخية والأخبار الأدبية والمذاهب الفلسفية .

فمن الأول قوله فى الأمير عبد الله صاحب الجزائر :

ذكرتنا يوم ضاعت أرضُ أندلسٍ الحربُ بالباب والسلطانُ فى اللعبِ

وقوله حرب فى طرابلس :

أيها الحائر فى البحر اقتربْ من حمى البسفور إن كنت هماما
عام شهرين ولم يفتح سوى هوة فيها الملايين ترامى

ومن الثانى قوله فى تهنئة الخديوى بالحج :

ولما استلمتَ الركنَ هاجت شجونهُ فلو أنه اسطاع الكلام تكلما
تذكر زينَ العابدين وجدَّه وما كان من قول الفرزدق فيهما

مشيراً بذلك الى ما كان من أمر الرشيد حينما رأى سيدنا على زين العابدين

وهو يطوف بالبيت فتجاهله وتساءل عنه فأجابه الفرزدق بهذه القصيدة الخالدة التى يقول فى مطلعها :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يعرفه والحلُّ والحرمُ

ومن الثالث قوله :

فيا ليل أنزلنى بجوفك منزلا يضل به سربُ القطا ويحارُ

وان كنت ليل المانوية فليكن على سر أهل الشر منك ستارُ

مشيراً بذلك إلى مذهب مانى الذى يقول بأن الليل موطن المصائب والشرور ، وقد سبقه الى ذلك المتنبى حيث قال :

وكم لظلام الليل عندىَ من يدٍ تخبر أن المانوية تكذبُ

وقوله فى موضع آخر :

أصبحتُ كالدهرىِّ أعبد خدَّه وجبينه وأنا الشريفُ المعرقُ

مشيراً بذلك الى الدهريين ومذهبهم الذى لخصه القرآن الكريم فى قوله حكاية عنهم : (إن هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر)

مظاهر البؤس فى شعره

قدمنا لك أن البؤس من أظهر النزعات الغالبة على شعر حافظ ، وهيهات أن تجد أنمَّ عن نفس صاحبه من شعره . وانك لتقرأ ديوانه فيخيل اليك أنه ذوب نفس أبية عاشت تتطلع الى المجد وفيها معداته وماتت دون أن تنال منه أكثر مما ينال الظمىء من لامع السراب. ولا تشك فى أن صاحب هذا الديوان قد اصطلى فى طفولته واكتوى فى شبابه بنار البؤس الذى تعرف اليه فى مهده ولم يتركه حتى استقر فى لحده وهو بعد شاعر رقيق العاطفة دقيق الاحساس . فكان طبيعيا أن يجىء وشعره صورة لهذه النفس المعذبة ومرآة لهذا الفؤاد الواجب الذى طالما خاطبه بقوله :

يا خافقا قل لى متى تسكنُ ؟ لله ما تخفى وما تُعلنُ!

وما الذى أبقاه من مهجتى ومن فؤادى داؤك المزمنُ ؟

وسأعرض عليك طرفاً من أبياته ترى البؤس ماثلاً فيها يحدثك عن خبيئة الشاعر ويكشف لك من أمره مالم تكشفه لك الابصار .

يقول من رسالة بعث بها الى صديقه البابلى :

كيف تنسى يابابلىُّ غريباً بات بين الظنون والأوهام
وحزيناً إذا تنفس عادت لحمةُ الليل جمرةً من ضرام
واذا أنَّ كاد ينصرع الافـ ـقُ وتختلُّ دورة الأجرام
بات تحت البلاء حتى تمنى لو يكون المبيت تحت الرغام

ويقول فى موضع آخر نادباً حظه وسوء حاله وعقوق الدهر له ولعبقريته:

عقنى الدهر ، ولولا أننى أوثر الحسنى عققتُ الأدبا
إيهِ يا دنيا اعبسى أو فابسمى لا أرى برقك إلا خُلَّبا !

وإخالك لا تعجب بعد ذلك إذا رأيت حافظاً يصبغ بالشكوى والأنين جوانب شعره فنرى بؤسه فى الوصف والغزل كما تراه فى المديح والرثاء . وها هو ذا يمدح محمد بك بيرم فيقول له فى ثنايا القصيدة :

وقد أصبحتُ من تعبى وكدحى على الأرزاق كالثوبِ الرديمِ

وانه ليخيل اليك أن البؤس قد طغى على احساس حافظ وسيطر على عواطفه حين تراه يستهل قصيدته فى عيد رأس السنة بهذا البيت :

لى فيكَ حين بدا سناكَ وأشرقا أملٌ سألتُ الله أن يتحققا

وكانت لحافظ نفس قلقة ثائرة مضطربة كما وصفها هو فى كتابه (البؤساء) لاتكاد تستقر على حال : فمرة ترسب فى حضيض الألم راضية بقسمها ، قانعة بنصيبها من هذه الحياة الفانية ، وهو يصور لك حالها إذ ذاك بقوله :

نحن نرضى بالقوت من هذه الدنيا وإن بات دونَ قوتِ النعام
ولئن خان قسمُنا ما شكونا لسوى الله أعدلِ القُسّام

ومرةً تطفو الى سماء الرفعة وتتماسك مطوية على الألم موهمة الناس أنها أسعدهم حالا . والبيتان الآتيان يصورانها لك فى هذه الصورة :

تماسكتُ حتى لو رأى الناس حالتى رأوا رجلاً هانت عليه مصائبهْ
وعلمتُ نفسى كظم غيظى فلم أبح بما فعلت بين الضلوع قواضبهْ

كما يمثلها فى مطاردتها لليأس واستهانتها بالصعاب قوله :

على أننى لا أركب الصعبَ مرةً ولا أكبر البأساء حين تغيرُ

وأحيانا يسأم الدنيا ومَنْ عليها فيودعها ويناجى القبر والآخرة نجوى العاشق المشتاق فيقول :

سلامٌ على الدنيا سلامَ مودِّعٍ رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما
أضرّتْ به الأولى فهام بأختها فان ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهبِّى رياحَ الموت نكباء واطفئى سراجَ حياتى قبل أن يتحطّما

ولعلك تسألنى بعد ذلك : من أى شىء كان يشكو حافظ وما موضع آلامه وأشجانه ؟ . . . وجوابنا عن ذلك أنه كان يشكو من شعبه النائم عن حقوقه الساكت على آلامه ، يرى الخطر يتهدده وأسباب الفناء تحوطه ، ثم يلهو ويلعب ويفخر بالماضين وما خلفوه ، فيخاطبه مرة بقوله :

وكم ذا بمصر من المضحكا ت كما قال فيها (أبو الطيب)
أمورٌ تَمُرُّ وعيشٌ يمرُّ ونحن من اللهو فى ملعب
وشعبٌ يفرّ من الصالحا ت فرارَ السليم من الأجرب

ويعجب منهم ويبكتهم على جهلهم وتأخرهم مرة أخرى فيقول :

وقل للعاجزين أما لهذا الفخر من سبب ؟
أرونى نصفَ مخترعٍ أرونى ربعَ محتسب
فهبُّوا من مراقدكم فإن الوقت من ذهب

ويشكو كذلك من نفسه الكبيرة التى بين جنبيه

وإذا كانت النفوس كباراً تعبتْ فى مرادها الأجسام

فلا هى قادرة على إصلاح ما ترى ، ولا هى قادرة على احتماله ، ولا هى راضية بالعجز بين هاتين الحالتين .

ألست ترى ذلك واضحاً فى قوله (يريد المصريين) :

ينامون تحت الظلم والأرضُ رحبةٌ لمن بات يأبى جانبَ الظلم جانبُهْ

فياليت لى وجدان قومى فأرتضى حياتى ولا أشقى بما أنا طالبُهْ

وأخيراً يشكو من عثار حظه فى وطنه وخيبة آماله فى قومه وضياع أدبه بين عشيرته واخوانه فيقول مخاطباً مصر فى نغمة البائس الحزين :

حطمتُ اليراعَ فلا تعجبي وعفتُ البيان فلا تعتبي

فما أنتِ يا مصر دارَ الأديب وما أنت بالبلد الطيِّب

فلا تعذليني لهذا السكوت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى

وهو لا يتردد فى أن يصارحنا بأن هذا الأخير هو مصدر حزنه وسر شقائه فيقول :

أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا ما بتُّ أشكو النُّوَبا

بيد أنه كان كثيراً ما يستكثر من نفسه هذه الشكوى ويستنكرها عليها ويبرأ ويعتذر عما فرط منها ، وفى ذلك يقول :

وما شرعتْ هذا اليراعَ أناملى بشكوى ولكنَّ اللجاج يثيرُ

أسباب بؤسه

يجدر بنا بعد كل ما أسلفناه أن نبين لك أسباب بؤس حافظ وأن نتعرف سر هذه الحسرة التى لازمته طوال حياته والتى طالما قال فيها :

حسرةٌ فى النفس لو قسمت على ذوات الطوق لم تسجعِ

وكان لزاماً علينا ان نتتبع الظروف والأحوال التى انتحت بشاعرنا هذه الناحية وحولت عاطفته الى هذا الطريق . ونحن نرى ان بؤس حافظ وان كانت

جرثومته الأولى قد وُلدت معه يوم ولد ، وصاحبته فى نموه وتدرجه فى طريق الحياة ، نرى مع ذلك ان البيئة التى احتوته والوسط الذى عاش فيه يكوّنان الجانب الأكبر من هذا البؤس الذى ترجع اسبابه الى اربع جهات :

(١) نشأته الاولى بين احضان المتربة والفاقة ومخادنة العناء والشقاء له وهو صبى فى

وددت لو طرحوا بى يوم جثتهم فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب

ورجل طلع الى المجد كحافظ حرى به ان يحزن ويكتئب اذا رأى نفسه بين قوم يقومون الناس بما يملكون ولا يعرفون للمجد سلماً سوى المال ، وألفى نفسه مع ذلك مفتقدا لهذا السلم . وليس لهذا السبب اثر بين فى شعره اللهم الا ما كان ايماء او تلميحاً كما فى قوله :

فما أنا مطلق كالفكر أسرى فأستبق الضواحك فى الغيوم
ولكنى مقيدة رحالى بقيد العُدم فى وادى الهموم

مما يدلنا على ان الامر لو اقتصر عليه وحده لكان فى ذكاء حافظ وعبقريته ما يمحو أثره من صفحة حياته . وكم من معدمين فى طفولتهم بَسَمَ لهم الدهر بعد فكانوا من أسعد الناس حظاً وأرفعهم مكاناً .

(٢) خذلان قومه له وكساد شعره بينهم وعدم احساسهم به وتقديرهم له ولإنتاجه ،والشاعر كالزهرة يحييه التشجيع والثناء ويميته الإهمال و الازراء .

وأى اهمال أشق على النفس من أن يمرض فلا يعاد ويناًى عن العيون فلا تشعر بنأيه ، وفى ذلك يقول :

مرضنا فما عادنا عائد ولا قيل أين الفتى الألمعى ؟
ولا حنّ طرس الى كاتب ولا خف لفظ على مسمعى
سكتنا فعزّ علينا السكو ت وهان الكلامُ على المدّعى !

ولكم كان قاسياً على نفس حافظ أن يعيش فى بلد لا يعرف الفضل لذويه،ولطالما خاطب مصر بهذا البيت من شعره :

ليتَ مصراً كغيرها تعرف الفضـ ـلَ لذى الفضلِ من ذوى الالبابِ

ولقد تسمع قوله فى رثاء الأستاذ الامام :

فيا منزلاً فى عين شمس أظلنى وأرغم حُسّادى وغمّ عُداتى

فتعلم أنه رغم بؤسه ووحشته كان كثير الحساد والأعداء — ولهذا كان دائماً متبرماً بالحياة ساخطاً على أهلها ، وكلما نظر إلى أدبه الرائع الذى وأدوه بينهم بجهلهم وإهمالهم ازداد حسرة وألماً وردد هذا البيت المشهور من شعره :

فلولا أنهم وأدوا بيانى بلغتُ بك المُنَى وشفيتُ ما بى

وكان كلما لمع له فى سماء الامل بارق وقامت تنتعش على ضوئه نفسه العالية المزدحمة بالآمال والآلام ، وقفت المقادير بينه وبين ما يريد ، وجذبه عثار الحظ ونكد الطالع فأقصاه عن آماله ، وفى ذلك يقول :

لكننى غير مجدود وما فتئت يدُ المقادير تقصينى عن الأرب

وقد غدوتُ وآمالى مطرَّحةٌ وفى أمورىَ ما للضبِّ فى الذنب

(٣) غربته فى السودان وبُعده عن أهله وأصحابه بمصر وإرغامه وهو الأبى على العيش فى ارض نائية يشتكى من حرها وعذابها مايشتكيه من معاشريه ومن رؤسائه وعنتهم وعدم تقديرهم لمواهبه . ولعل أوضح صورة لما كان يعانيه شاعرنا فى غربته هى التى اشتملت عليها هذه الأبيات الثلاثة:

نزحتُ عن الديار أروم رزقى وأضربُ فى المهامه والتخوم

وما غادرتُ فى السودان قفراً ولم أصبغ بتربته أديمى

وها أنا بين أنياب المنايا وتحت براثن الخطب الجسيم !

بيد أن هذه المرحلة من عمره كما قدمنا فى غيرهذا الموضع هى أخصب حياته بهذا النوع من الشعر ، ولا عجب فان له فى هذا الباب رسائل خالدة وقصائد رائعة جرت مع النيل الى مصر تحمل الى أصدقائه وأخلائه بها ما يعانيه صاحبهم فى هذا البلد النازح من الأسى والعذاب.

(٤) إخفاقه فى الوصول الى الخديوى ، وما كان لنفس مهما منحها الله من الصبر أن تحتمل أكثر من عشرين عاماً ترسل فيها المدحة تلو المدحة ولا تدع فرصة تمر دون أن تتقدم اليه فيها بمنظومة بديعة . ولا تزال هذه القصائد الغراء حلية ديوانه الى اليوم .

ومع ذلك فانه لم ينل من نفس عباس اكثر مما ينال الحديث من نفس سامعه .

وبينما كان شوقى يتسابق الذهب والفضة فى المثول بين يديه ، ويعيش بشعره بين عطف المليك وعنايته ، ويتقلب بفضله بين احضان الترف والنعيم ، كان حافظ يصطلى بنار العدم والمسغبة مع ضعف البون ما بين الشاعرين .

واذا كان شوقى يقول فى عيد مولاه :

مولاىَ عيدك عيـد الناس كلهم وأنت جامعة الاجناس والملل
ان الملوك على الكرسىّ مربعها وانت تجلس فى الاسماع والمقل

ثم قصَّر شاعرنا يوم قال فى نفس العيد :

طُف بالأريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن دان
يا عيد ليت الذى أولاك نعمته بقرب صاحب مصر كان أولانى
صغتُ القريض فما غادرت لؤلؤة فى تاج كسرى ولا فى عقد بوران

وفيها يقول :

اليومَ أنشدهم شعراً يعيد لهم عهد النواسىّ أو أيامَ حسان
أزفّ فيه الى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان
أعليتَ بالعدل مُلكاً أنت حارسه فأصبحتْ أرضه تُشرى بميزان
جرى بها الخصبُ حتى أنبتت ذهباً فليت لى فى ثراها (نصف فدان) !

وما أجمل هذا البيت وما أخف دعابته على النفس لولا مافيه من ايماء خفى الى فقر الشاعر وحرمانه .

بل ما نظن شوقى قد استطاع مهما أجاد فى مدح مولاه ان يزيد على ما قاله حافظ فى تهنئته بالحج :

مشت كعبةُ الدنيا إلى كعبة الهدى يفيض جلالُ الملك والدين منهما
ولو أننى خُيرت لاخترت أن أرى لعيسك وحدى حادياً مترنما
حللتَ بأكناف الجزيرة عابراً فأنضرتَ واديها وكنت لها سما
وأشرقتَ فى بطحاء مكة زائراً فبات عليك النيلُ يحسد زمزما

وكانت تلجُ هذه المدائح التى فنى فيها صاحبها أذنَ الخديوى وتخرج من الثانية من غير أن تصل إلى فؤاده !

لهذا كان طبيعياً أن يزداد ألم حافظ وبؤسه، وأن يداخله من الهموم والحسرات ما يداخل صاحب السلعة الجيدة إذا صدف عنها الراغبون.

ويخيل الىّ أن حافظاً مع ما كان متمتعاً به من عطف كثير من عظماء مصر كالمرحوم

حشمت باشا والاستاذ الإمام فانه كان ينظر الى المليك بعين خاصة ويرى أن رضاه منتهى الآمال وفى عطفه وولائه تمام السعادة — فكان يحاول الوصول اليه عن طريق شعره ، ويطرد اليأس عن نفسه ، معتقداً بأنه لابد واصل الى ما يريد مادام له فم ناطق ولممدوحه أذن سامعة . وكان حيناً يفخر بمدائحه ويدعى أنه أتى فيها بما يعجز عن الاتيان به سواه فيقول :

كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدفٍ ... سابحتُ فيه لنظام ووزّان
عابوا سكوتى ، ولولاه لما نطقوا ... ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان
واليومَ أُنشدهم شعراً يعيد لهم ... عهد النواسىّ أو أيامَ حسان

ويقول فى موضع آخر :

ولو شئتُ أذهلت النجوم عن الثرى ... وعطّلتُ أفلاكاً بهن تدور
وأشعلتُ جلدَ الليل منى بزفرة ... غراميةٍ منها الشرارُ يطير !

وأحياناً يعترف بالسبق لشوقى فى مدح مولاه ويقر له بالفضل والابداع فيقول :

لم أخشَ من أحد فى الشعر يسبقنى ... الا فتى ما له فى السبق الاه
ذاك الذى حكمت فينا يراعتُه ... وأكرم اللهُ والعباسُ مثواه

وكأنى به وقد ثبت فى روعه أن شوقى قد احتل بشعره من نفس سيده مكاناً لا يسمح لشاعر آخر أن ينازعه فيه ، فطفق يستندى رضاه ويختلس عطفه بايهامه أن مدائحه كمدائح صاحبه فى لفظها ومعناها ليستلفت نظره ويسترعى انتباهه ، وفى ذلك يقول :

الى سُدّةِ العباس وجهتُ مدحتى ... بتهنئةٍ شوقيةِ النسجِ معطارِ

كما يقول فى موضع آخر :

معانٍ وألفاظٌ كما شاء أحمدٌ ... طوتْ جزلَ بشارٍ ورقة مهيارِ

وكثيراً ما كان يغلب عليه اليأسُ ويعترف بعجزه عن مداناة شوقى كما يعترف بأنه أقل من أن يصل بشعره الى الخديوى فيقول :

لم يُبْقِ أحمدُ من قولٍ أحاوله ... فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تَعبِ
فلست ممن سمتْ بالشعر همتُه ... الى الملوكِ ، ولا ذاك الفتى العربى

وينتقل بشعره الى مدح (ادوارد) و (فيكتوريا) و (هوجو) و(عبدالحميد) .

طرق حافظ فى سبيل غايته كلّ هذه السبل على ما رأيتَ وعاد منها كلها خائباً فحوّل وجهه ناحية اخرى وابتدأ يمدح شوقى نفسه ويطرى شعره علّه يذكره يوماً بخير عند مولاه ، وكم كان فى هذه الامنية واهماً . واستمع اليه حين يقول فى تهنئة الخديوى :

شوقى نسبتَ فما ملكتُ مدامعى ... من أن يسيل بها النسيبُ الشيق
أعجزتَ اطواق البيان بمدحةٍ ... سجد البيان لربها والمنطق
لم تترك[1] لى فى المدائح فضلة ... يجرى بها قلمى الضعيف ويلحق
نفسٌ على شوقٍ لمدح أميرها ... وبراعتى بين الأنامل أشوق
ماذا أقول وانما فى مدحه ... بحران بات كلاهما يتدفق ؟
العجز أقعدنى وان عزائمى ... لولاكما فوق السماء تحلق !

وهل تظن ان شوقى قد مُدِح فى حياته أو أُبّن فى مماته بأجمل من هذه الأبيات التالية التى كلل بها حافظ جبينه والتى تلمس فيها الحبّ والإخلاص والاعتراف بفضل ؟ واليك هذه الأبيات التى تسيل رقة وعذوبة :

يا شاعرَ الشرقِ اتّئدْ ... ماذا تحاول بعد ذاكْ
هذى النجوم نظمتَها ... درَرَ القريض وما كفاكْ
والبدرُ قد علمته ... أدبَ المثول اذا رآكْ
وسموت فى أفق الشعو ... رِ فكدتَ تعثر بالسماكْ
وحباك عباسُ المحا ... مدِ بالمواهبِ واصطفاكْ

وقلّ أن تجد مدحة خديوية له قد خلت من ذكر شوقى إمّا مادحاً له أو متوسلاً به عند مولاه — أفتُن أخفق حافظاً فى مسعاه بعد هذا اللأى المتواصل ، وخاب فأله بعد ذلك الصبر الجميل ، أفلا يصح أن يكون هذا الإخفاق وهاته الخيبة عاملين

(١) صبرى وشوق

قويين من عوامل بؤسه ؟ أعتقد أن بعض هذا كان كافياً للقضاء على نفسه لولا أنها جبارة فسيحة الآمال .

حسنات هذا البؤس وسيئاته

وإخال أن أول ما يواجهنى به القارىء لو لم أُتْبِعْ هذا العنوان بما يوضحه ويبين رأيى فيه هو السؤال الآتى : وهل للبؤس من حسنات ؟

وأنا أرى وأحبّ أن يشاركنى القراء فيما أرى أن حافظاً كله ثمرة من ثمار البؤس ويدٌ من أياديه الطيبة يقدرها له الأدب والمتأدبون . ولو تمثل البؤس للناس رجلاً لكان شاعرنا آخر أبنائه وأقربهم شبهاً به . والذين يتصدون مثلى لدراسة حافظ يرون أن شعره — وإن شئت فقل انتاجه عامّةً — يسير مع بؤسه جنباً إلى جنب ويتدرج معه فى الوجود قوةً وضعفاً ويتبعه فى الحياة وجوداً وعدماً . ويرون أنه بين يدى بؤسه كالقيثارة الطيبة بين يدى العازف كلما قسا على أوتارها المشدودة علا رنينها وارتفع أنينها .

ألست تراه وهو ضابط بالمدرسة الحربية فى مصر موفور العيش بين أهله وصحبه خافت الصوت لا تسمع به إلا فى المناسبات — فاذا ما ذهب إلى السودان وحلّ به من العناء والعذاب ما علمت حرّكت أنامل البؤس هذه القيثارة فأنّ أنيناً عالياً سمعناه فى مصر فحرك عواطفنا وأيقظ من آلامنا وأشجاننا ما كان منسياً ؟ ولولا ضنّنا بحياة الشاعر وحدبنا على شخصه وإشفاقنا عليه من عبء لم يتعود حمله لأبقيناه فى السودان كذبالة المصباح تضىء للناس وهى تحترق !

ولو سايرتَ حياته ونظرت اليه بعد ذلك وقد عاد من السودان واستقال من عمله وقبع فى كسر بيته لا تصل يده الى قوته الا بعد لأى وعناء لرأيت كيف أوجد البؤس أمامه أكثر من باب ، وعلمه الاحتيال بطرقها ، والتدرع بالصبر والثبات وعدم اليأس مادام شاعراً ، والشعر مفتاح القلوب . وكان حيناً يمدح العظماء ويرثى موتاهم ، وأحياناً يغشى المجالس والأندية بشعره فى مختلف الشئون حتى يبلغ رسالته ويشعر الناس به ، لعلهم يخرجونه من ظلمات البؤس الى نور السعادة والهناء .

وبعد ادراكه غايته المادية أمسك هذا البلبل الصدّاح عن التغريد وافتقدت الآذان

صوته عندما وُظِّف بدار الكتب فى العهد الأخير براتب لم يكن فى حسبانه يوماً ما ، ومكث أكثر من سبع سنوات دفيناً فى منصبه لا يحسّ بوجوده الا من اتصل به ! وما إن خرج من الدار مُحالاً الى المعاش حتى انطلق كما ينطلق العصفور السجين وعاود الغناء والتغريد ، فأسمعنا فى السياسة ونقد الانجليز مقطوعات جريئة لاعيب فيها سوى أنها كانت قصيرة العمر تحمل معها نُذر فنائه ، لهذا كله لا نرى بدعاً ولا حرجاً فى أن نقول ـ وحقّ ما نقول ـ أن حافظاً لو لم يكن بائساً لما كان شاعراً ، وانه مدينٌ الى البؤس بهذه الشهرة الواسعة ، ولولاه لما تسنى له أن يتقدّم الى الأدب بهذه الصورة الباكية التى تذيب الافئدة وتستدرّ عصى الدموع .

وقد قدمنا لك آنفاً أنه لم يدع سبيلاً يظن أنه يوصله الى الخديوى الا سلكه وكان يخفق . وكان فى كل مرة يخفق فيها تتفتح أمامه أبواب المعانى ويكدح فكره فى اختراع ألفاظ وطرق جديدة فى التعبير فيتنوع بذلك اسلوبه وترقى أخيلته وتتجدد معانيه ، وفى ذلك كله نموّ فى فكره وأثرٌ فى أدبه لا يقل عن أثر تقليده لشوقى فى مدح الدولة العثمانية وإطراء الخلافة يوم كانت ثم رثائها حين دالت ، وترسّم خطاه فيما كان ينظم فيه من أغراض . ولم يعرف عنه أنه اقتدى بشوقى فى غير هذه الناحية ، ولعله كان يعتقد أنها هى الطريق الذى ركبه شوقى الى مجده والسلم الذى صعد عليه .

أما سيآت هذا البؤس : فحسبك منها انها خلقت من حافظ شاعراً قانعاً متواضعاً مستهيناً بنفسه وبمكانته بين قومه ، وما كان من آثار ذلك ما نراه فى شعره من خضوع واحساس بالضعة ، ولولا هذا لما استباح لنفسه أن يقول :

ولستُ ممن همت بالشعر همتُه الى الملوك ولا ذالا الفتى العربى

وكان من نتائج هذا البؤس الذى يلازمه ما نراه من اسرافه فى مدح زميل له كشوقى ، فقد أغرق فى ذلك وأتى بما يعاب . ونحن اذا تسامحنا معه وقبلنا منه قوله فى استقباله :

هذا امرؤ قد جاء قبل أوانه إن لم يكن قد جاد قبل أوانه

مع مابينهما من قرب المسافة وضعف البون كما أسلفنا ، فما كنا لنتقبل منه بحال أن يرضى بالدون أو نستسيغ منه أن يصف نفسه بالضعة والصغار ويسجل عليها

العجز والتقصير فيقول فى رثاء (تولستوى) من قصيدة إن لم تكن أحسن من شوقية صاحبه فما هى بأقل منها :

رثاكَ أميرُ الشعر فى الشرق وانبرى لمدحك من كتاب مصر كبيرُ
ولستُ أبالى حين أرثيك بعده إذا قيل عنى قد رثاه صغيرُ

بل انى لأستنكر على رجل كحافظ يقول له الشاعر الكبير أحمد محرم :

أميرَ الشعر والشعراء سمعاً مقالة ذى محافظةٍ صدوق
لأنت المرء يشأى طالبيه فليس طلابُ شأوك غير مُوق!

ثم يأتى هو بعد أعوام من ذلك التاريخ وقبل أن تُنْسَى تلك المدحة العظيمة فيقول لشوقى فى مهرجانه :

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعاً وهذى وفودُ الشرق قد بايعتْ معى!

ولا خلافة هناك ولا ملك ولا بيعة ! وكانت لذلك نتيجة عكسية من جانب شوقى، فقد أهمل صاحبه ونسى وجوده ولم يعترف له بموهبة ولا فضل ، وهكذا كان شوقى يحترم من يخافه ويتجاهل من يأمنه ولو كان أفضل الناس جميعاً .

وثمة أثر كان اسوأ لهذا البؤس ونتيجة بغيضة لا تقل عن سابقتها وتلك هى اتخاذ الشعر وسيلة للاستجداء واعتباره سلماً لغايات النفس وشهواتها ؛ وهذا لعمرى خطر داهم على الشعر والشعراء ، يحط من اقدارهم ويسوّي بينهم وبين المتسولين الذين يسألون الناس فى الطرقات الحافاً — وواجب على الكتاب والشعراء فى كل زمان ومكان ان يستهجنوا هذا النوع المهين من الشعر ويطاردوا قائليه — وكان ذلك على ما فيه من ضعة ومهانة شائعاً فى شعر حافظ يختتم به مدائحه ويذيل به رسائله إن نظماً وإن نثراً .

وأكبر ظنى انه لولا البؤس الذي أقضّ مضجعه وطغى على احساسه لما رضى أن ينسب إليه مثل هذا العجز الوضيع :

« أدرك فتاك فقد ضاقت به الحالُ »

ولما غفرنا له بأى حال قوله لممدوحه فى قصيدة هى تهنئة بعرس :

وكنْ لعلىٍّ بهجةَ العرسِ انه بعزّكَ فى الافراح تمتْ مزاياهُ
ولا تنس من أمسَى يقلب طرفه فلم ترَ الا انت فى الناس عيناهُ

وانت ترى ان البيتين مع ما فيهما من تناقض واختلاف فقد شوّه الثانى منهما جمال الأول ومسخ بهجته ورواءه . وكان من سيئات هـذا البؤس كذلك أن اتخذ شعر حافظ هذه الناحية الهادئة المتواضعة واصطبغ بهذا اللون القاتم فجاء خالياً من حماسة البارودى وفخره ومن زهو شوقى وكبريائه .

ومن يدرى كيف كان يؤول مستقبل حافظ لو أتيح له من بلهنية العيش وسعادة الحياة ما أتيح لصاحبه ولوحِظَ بتلك العناية التى لوحظ بها زميله .

ولقد كان حافظ يفنى فى بؤسه ويرى أنه من الغبن أن يشترك معه غيره فيه . لهذا آثر ان يحتمله وحده ، فلم يتخذ له صاحبة ولا ولداً ، ومات ولم يعقب سوى كتابين فى النثر هما كما يقول عنهما خير ما أخرج للناس فى هـذا العصر ، وديوانه المطبوع فى ثلاثة أجزاء وهو حرى بالدراسـة والتحليل — يقول شوقى رحمه الله فى تقريظه :

لا تسألوا الأصداف عما أودعتْ فى هذه الأوراق كلّ عجيبِ

تلك صفحة من تاريخ حافظ ، إنْ لم تكن قد استوعبتْ حياته فقد أضاءت أظلم ناحية فيها ، وكفى بها

طلبه محمد عبده

المرأة فى شعر حافظ

لاتُعرف لأمةٍ نهضةٌ شاملة اذا حُرِمَتْ المرأةُ نصيبها من التأثير فى المجتمع . ومقياس منزلة المرأة الإشادة بها واعلان فضلها ونفوذها . وقد تكون تلك الاشادة وذلك الاعلان بصور شتّى : كالدفاع عن حقوقها ، وكالتغنّى بمآثرها فى بناء هيكل الأمة ، وكالتغزّل بجمالها . فأين شعر حافظ من كل هذا ؟

لقد كان حافظ من مدرسة قاسم أمين المنتسبة الى بيئة الامام محمد عبده وهى